التصوف الاسلامى

بقلم سليمان فارس النابلسى

تتمـــة

ماهية الصوفية وبعض عقائدها

إذا مارجعنا الى المصادر الصوفية لنتفهم حقيقة هذه الطريقة استخلصنا من بين ثنايا السطور بعد إجهاد وكدّ أنها إنما تتمّ بعلم وعمل ، وذلك بقطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها ورغباتها ومطامعها المادية حتى يُتوصّل بذلك الى تخلية القلب من غير الله وتحليقه بذكره سبحانه

وأخص خواص هـــذه الطريقة لايتوصل اليه بالتعليم والاستقراء والدرس بل يلتمس بالذوق العالى وتبدل الصفات ، إذ أنهم يرون أن الفرق شاسع بين معرفة حدّ الشيء وبين معرفة الشيء نفسه ، كأن يعرف المرء حدّ السكر مثلاً بأنه حالة يجلس فيها فيأخذ من الشراب الى أن يصبح ثملاً فنشوان فسكران ، وبين أن يكون سكراناً . وكذلك القياس فى معرفة حقيقة التصوف من أنه عزوف النفس الكامل عن المادة ، وبين أن يكون متصوفاً زاهداً

يعتقد الصوفيون أن معرفة الله لاتأتى بالمجادلات العقلية ولا بالمناظرات الفلسفية ، ذلك لأن العقل الانسانى عاجز عن إدراك كُنْه الحق المطلق وتفهّم صفاته وخواصه بمثل هذه الأشياء ، وإنما تتكون المعرفة فى الشعور بطريقة خاصة وعمل مستمر يمكّن من رؤية الله تعالى بالقلب لا بالعقل

يسلك الناسك (طريقاً) خاصاً للوصول الى هذه الغاية يكون فيها تهذيبه وتنقية روحه من عوارض الدنيا وزخارفها المادية ، ثم يتدرّج فى هذه السبيل ويقطع (مقامات) معيّنة يصل فى نهايتها الى الفناء فى الحق ، وهذه المقامات سبعة وهى : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا ، يكسبها لنفسه بنفسه بعد طول الجهد والتهذيب المنظم

وقد اختلف العارفون فى فهم كنه هذه المقامات وتباينت آراؤهم فى تفسيرها على معانيها الظاهرة أو الباطنة ، فالفقر مثلاً حسب ظاهر المعنى هو ألا يملك المتصوف الزاهد شيئاً مادياً ، على حين أن البعض الآخر ذهب الى أبعد من ذلك فاعتقد بأن على المتصوف الذى بلغ (مقام) الفقر أن يجرد نفسه من الشعور بالحاجة الى المادة ويقتلع من جوانحه التفكير فى ضرورتها ، وعندئذ فقط يصبح فى مقام الفقير المتصوف

وهناك اختلاف آخر ، فالفقير الذى يتمسك بالفقر ويعتقد اعتقاداً جازماً بتفوق الفقر وماله من فضل على ضروب الغنى طمعاً فى مكافأة ربانية ليس متصوفاً حقاً ، ذلك لأنه يحمل مشقة الفاقة ويصدف عن المشاعر بالمسرات الدنيوية خشية خسران البرّة الربانية وأجر الصبر ، وهذا لايغنى فتيلاً ، بينا أن المتصوف الحقيقى لايترك مافى هذه الحياة الدنيا من ملاذّ ومُتَع لقاء ثواب فى الحياة الأخرى ، بل هو يبتعد عنها لما يجده فى سلوكه هذا وفى حالته من الجزاء الأوفى . وهكذا نرى أن الاختلاف بيّن واضح ، الواحد يتخذ الفقر وسيلة للثواب والأجر ، بينا أن الثانى يبتغى الفقر غاية وأملاً

١ — عقيدتهم فى التوحيد : إن شيوخ هذه الطريقة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد . فمن تصفّح كلامهم وتأمل فى ألفاظهم ألفى فى مجموعه ما يؤكد له أن هؤلاء القوم عرفوا صفة الخالق فوحدوه ، وشهدوا بقدمه فنزهوه عن الحدث

والتوحيد هو الحكم بأن الله واحد ، وفى ذلك نفى التقسيم لذاته ونفى التشبيه عن حقه وصفاته ونفى الشريك معه فى أفعاله ومخلوقاته . وينقسم الى ثلاثة أقسام : توحيد الحق للحق ، وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد ، والثانى توحيد الله سبحانه للخلق ، وهو حكمه بأن العبد موحّد ، وخلقه هو توحيد العبد فى قرارة نفسه ، والثالث توحيد الخلق لله وهو علم العبد أن الله تعالى واحد وإخباره عنه بأنه واحد

٢ — فى المحبة : المحبة عُرفاً هى ميلك الى الشيء بكليتك ، ثم إيثارك إياه على نفسك ومالك وموافقتك له سراً وجهراً . وجاء فى كتبهم على لسان المولى عز وجل أنه قال : ما تقرّب الىّ عبدى بشيء أحب الى من أداء ما افترضت عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه ، ومن أحببتُه كنت له سمعاً وبصراً ومؤيداً ويداً

والمحبة على لسان العلماء هى (الارادة) ولكن ليس مراد القوم بالمحبة الارادة ، فان هذه لاتتعلق بالقديم . فالمحبة الالهية للعبد

هى تخصيصه بانعام خاص كما أن رحمته له هى إرادة الانعام

٣ — التوكل : نجد الصوفيين أكثر ما كانوا تضاربا فى الآراء واختلافاً فى الفكر فى هذه العقيدة وأشباهها مما يتعلق بالمادة ، فبينا نقرأ للروذبادى قوله لرجل صوفى مدّ يده إلى قشرة بطيخ ليأكل : « إلزم السوق فهو أولى لك وأخير » ، وقول آخر منهم « إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع ، فألزموه السوق ومروه بالكسب والعمل » نقرأ لغيره قوله « أقمت فى الحرم مرة عشرة أيام ، فأحسست بضعف ، فخرجت إلى الوادى لعلّى أجد شيئاً يسكّن ضعفى ، فلم أجد شيئاً ، فرجعت وقعدت . وبينما أنا جالس وإذا برجل أعجمىّ جلس بين يدىّ ووضع مائدة وقال هى لك . »

هذا التغالى فى التوكل انتظاراً للرزق يأتى عن طريق الرفد والاحسان هو ما يضع من شأن هذه العقيدة فى نفوس الناس ، إذ أن مثل هـذا يورد موارد الفاقات ، فلا تسمو النفس ، ولا يعظم الشأن

٤ — ومن معتقداتهم الفناء والبقاء . فالفنـــاء سقوط الأوصاف المذمومة ، والبقاء قيام الصفات المحمودة . يقال فنى عن شهواته إذا بقى بنيّته وأخلص فى عبوديته ، ومن فنى عن رغبته بقى بزهادته

وهم يعتقدون كذلك فى الغيبة والحضور ، فالغيبة هى للقلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه من النفحات القدسية . وأما الحضور فقد يكون حاضراً بالحق ، لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق ، بمعنى أنه يكون كأنه حاضر ، وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه

ولو أردت أن أعدد هذه المعتقدات لطال بى المطال وكلّت منى الأيدى .

تطور الصوفية وطرقها الحديثة

كانت الصوفية فى أول عهدها ومبتدإ حياتها صبغة من الدين بسيطة ، خاصـة بجماعة من الرجال المتدينين نشروها فى حلقات صغيرة من الأصدقاء . ثم أخذت تتدرّج وتتعاظم ، فكوّنت طبقة خاصة ذات مدرسة خاصة ، بقواعد وأنظمة مقررة يتلقاها المبتدئون ممّن سبقوهم فى الأيمان بها . ثم ما لبثت أن قويت شوكة الرؤساء وكبار الشيوخ ، فأخذوا يسيّرون تلامذتهم وأتباعهم حسب مشيئتهم وأهوائهم دون أن يكون لهؤلاء رأى ، وما عليهم إلاّ الطاعة والأنقياد . حتى إذا تطاول الزمن ومرت السنون ، لم يعد الصوفى الكبير فى معزل عن العالم الأجتماعى حوله يعيش عيشة التقشف والزهد ، يطلب الوحدة نفوراً من مرأى الناس وظلمهم وتكالبهم على الملذات والصغائر ، بل أضحى شيخاً وجيهاً ذا عمّة منتظمة وجبّة فضفاضة ، يظهر فى المجتمعات العامة محاطاً بطائفـة من مختلف الطبقات من بطانته وأتباعه والمعجبين به

فى أوائل القرن الثالث عشر ظهرت فرق الدراويش كالمدوية والقـادرية الجيلية ، اللتين أسسهما عدى الحكرى وعبد القـادر الجيلى ، ثم تبع هاتين ظهور الشاذلية والرفاعية والمولوية ، فالرفاعية تنسب إلى مؤسسها أبى العباس أحمد الرفاعى المولود فى أم عبيدة إحدى قرى الفرات ، وهى تحيا اليوم بفرقتين كبيرتين هما العلوانية والجيباوية ، المشهورتين بحفلة (الدوسة) . هاتان أشد فرق الدراويش تعصباً وأكثرهم جهلاً وخبالاً

والقادرية الجيلانية يدعون أن عبدالقادر الجيلانى هو مؤسس طريقتهم ، وهم فى أورادهم وأذكارهم لايفعلون كما يفعل الجيباويون من تقطع الأجساد وغرزها بالأبر والأمواس ، بل يذكرون الله بتؤدة وهدوء ووضوح

وأما المولوية أو (الدراويش الراقصون) فقد أسسها فى العجم الشاعر الفارسى المتصوف الشهير جلال الدين الرومى مؤلف (المثنوى)

على أن المركز اللائق الذى اكتسبته الصوفية فى الدين والعطف الذى تفيأت ظلاله ، إنما ظهر بتأثير الغزالى الذى مال ميلاً كلياً إلى هـذه العقيدة بعد أن درس الآراء والمعتقدات الأخرى . فقـد أدخل الغزالى على الشريعة عنصراً جديداً بعث فيها النشاط بعد أن ظلّت زمناً طويلاً فى ركود من جراء الحروب الكلامية المستعرة بين الفلاسفة والدهريين والمتكلمين . ولم يقف أبو حامد عند هـذا بل أدخل فى الصوفية الفكرة الأساسية لما (وراء الطبيعة) ، وأخذ المسميات والمصطلحات التى عمد إليها ابن سينا والفارابى من تعاليم الأفلاطونية الجديدة وأحلّها مكاناً مقيداً فى الدين الاسلامى . على أنه وان لم يسلك هـذه الطريق إلى النهاية ولم يتقيد بسبل هذا المذهب إلاّ أنه اتبع التصوف العملى . فهو وإن يكن بحث فى الموضوعات والآراء الخيالية النظرية إلاّ أن علمه وإدراكه قد

اضطراه إلى أن ينحو منحى آخر ، ذلك أنه جعل العبادة قسماً من الحياة اليومية يمارسها العامة والخاصة على السواء

الصوفية وثقاة المسلمين

إن محور التصوف هو التجرّد عن النفس وما ترتبط به من مادة ، والانصراف الكلّى للحب الالهى . وغاية ذلك أن يمتزج العنصر الالهى الروحى فى الانسان مع (العقل الأول) الذى منه نشأ وإليه يرتقى . هذه الفكرة وإن كانت بعيدة عن ثقاة المسلمين الأولين الذين انطبع فى نفوسهم خوف الله والرهبة منه لكنها ليست غريبة تماماً عن العقل الاسلامى

ولقد لاقت الصوفية كما لاقى غيرها من المذاهب والآراء الجديدة مقاومة كبيرة فيها عنف وفيها شدّة من بعض ثقاة المسلمين . وغالى بعضهم فى نقمته فنعت الصوفيين بأنهم قوم جهلة يتخبطون فى مهاوى الغىّ والفساد ، لايركنون إلى الكتاب والسنة فى كل مايفعلون ، ثم أوغلوا فى تهجمهم عليهم فقالوا ماالتصوف إلاّ إسقاط الجاه وسواد الوجه فى الدنيا والآخرة ، وما التصوفون إلاّ قوم مراؤون يئسوا من العمل ومالوا إلى الخمول والكسل فكان شأنهم شأن من ينتظر أن تمطره السماء ذهباً وفضة

كانت هذه الحركة العدائية ترتكز على ثلاثة أسس :

أولاً : أن الصوفيين بشروا بصلاة ساكنة ، وبهذا مالوا إلى إنقاص شأن الصلوات الخمس الجبرية المفروضة التى هى من أركان الاسلام الخمسة زاعمين أنها من خصائص العامة الذين لم يتعمقوا فى المعرفة الروحية . أما هؤلاء الذين ارتقوا إلى أعلى درجات العلم والفلسفة فهم فى غنى عنها

ثانياً : أنهم أدخلوا (الذكر) فى الدين ، وهو إعادة دائمة لاسم الله تعالى بأوضاع وأشكال منوعة على نمط لم يعرفه المسلمون المتقدمون ، فهو إذن بدعة (وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار)

ثالثاً : أن كثيراً منهم اعتنقوا مبدأ التوكل مهملين جميع أنواع العمل وألوان التجارة وفى هذا ما فيه من إضعاف شأن الأمة اقتصادياً واجتماعياً . ثم أنهم كانوا يرفضون المساعدات الطبية عند الحاجة ويعيشون على الصدقات يتطلبونها من المؤمنين . أنهم ليحدثون فى عقول الناس معنىً خاصاً لله وللدين

لم يقف الصوفيون أمام تهجمات خصومهم مكتوفى الأيدى ولم يفقدوا رشدهم أمام هذه الحملات الشعواء المبعوثة من كافة النواحى والجماعات ، بل دافعوا عن كيانهم بحجج قوية وأدلة مبعثها الكتاب والسنة وأثبتوا فضلهم وعلمهم ، وقالوا إنهم قوم آثروا الله على كل شئ فاصطفاهم من دون الناس كافة لأيقاظ الناس وإطفاء شعلة التشكك والألحاد ، قال الشبلى : « الصوفى منقطع عن الخلق ، متصل بالحق ، بدليل قوله تعالى واصطفيتك لنفسى . قطعه عن كل (غير) ثم قال لن ترانى . » ومما استشهدوا به على أنهم وُصفوا فى الذكر الحكيم بالصدق والخشوع والصبر والتوكل والقنوت والزهد : وهم على اعتقاد أنهم المعنيّون بهذه الأوصاف . ومن كلام النبي (ص) فيهم قوله . « رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبرّه »

كلمة ختامية

إن تعاليم الصوفية قد لاءمت العقلية الفارسية أكثر مما لاءمت العقلية العربية . ولم يكن تأثيرها فى الحياة العربية والأدب العربى خاصة مضارعاً ما كان لها من أثر بيّن فى الأدب الفارسى منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى يومنا هذا

والواقع أن الكثرة المطلقة من شعراء الفرس المجيدين قد انصهروا فى بوتقة هذه التعاليم فامتزجت بتفكيرهم وخيالهم ، وظهر هذا جلياً واضحاً فى الاستعارات والمسميات الصوفية التى كانوا يطرزون بها أشعارهم . على حين لم يكن بين شعراء العرب المجلين من وقف وقفة ولو بسيطة عند هذه التعاليم إذا استثنينا الشاعر المبدع شرف الدين عمر بن الفارض العربى المولد والشعر مادة وروحاً . وللعرب فى تاريخ الصوفية الأدبى فارس آخر هو محى الدين بن العربى الأندلسى المولد فى القرن الثانى عشر الذى ألقى عصا الترحال فى دمشق الفيحاء ، بعد أن زار فى رحلته مصر ، والحجاز وبغداد والموصل وآسيا الصغرى ، وله مؤلفات تربو على المئتين والخمسين عدا ، وأشهرها الفتوحات المكية وفصوص الحكم وبهما يعتبره البعض أعظم صوفىّ الاسلام

هذه صفحة موجزة فى تاريخ الصوفية ونشأتها أود أن أختمها بالثناء العاطر على الأستاذ العلامة نكلسون لما بذل من مجهود فى تنقيبه عن أسس هذه الطريقة ومعالمها ، فأضاء لنا صفحة مشرقة فى تاريخ هذا البحث الخطير الشأن . وعسى أن يقوم من بين علماء العربية من يتطوّع للكتابة فى هذا الأمر الجليل ، فالمجال مازال واسعاً والفائدة جزيلة عامة إن شاء الله .

السلط — شرق الأردن **سليمان فارس النابلسي**